وكانت غاراتهم ما تزال تَبغَتُ القُرى الرومية على الشاطئين فيصيبون مغانِم، ويعودون إلى بيوتها ظافرين قد أضافوا إلى ما ادَّخَروا من الزاد والعتاد ذُخرًا جديدًا، وزاد العدوُّ جهدًا على جَهد.

ومضى عام وجيش مسلمة لم يَزَل يُحاصِر القسطنطينية، حتى جهِدَتْ جَهدًا شديدًا، وأوشكت أسواقُها أن تُقفِر من الطعام، وضاق أهلها بالحياة …

وبلغت الحالُ في بلاد الروم من الفوضى والاختلال مبلغًا حملَ القيصرَ أنسطاثيوس على اعتزال الملك لينقطِع للدعاء والعبادة راهبًا في دير، وخلا عرش القسطنطينية من قيصر، فراح الأمراء والبطارِقة وقادة الجُند يتواثبون كالضفدع حول العرش، يأمل كلٌّ منهم بلا كفاية أنْ يكون قيصرًا …

وكان إليون المرعشي «الإيزوري» رأسَ الفتنة؛ وهو رجلٌ من غُثاء الناس[٣] ليس له جذر يمتُّ به، كان أبوه إسكافًا يصنع النعال؛ فنشأ كما ينشأ ابن كلِّ إسكاف، ثم اتَّجَرَ في الماشية فأثرى وجمع مالًا، ثم اصطنع كما يصطنِع الأثرياء بطانةً وحاشية، ثم رأى اختلال الأمر في الدولة، فحُبِّبَ إليه أنْ يكون قيصرًا، فاتَّخَذَ كلَّ وسيلة إلى ما يُحِب …

ولم يكن له مطمع في رضا قومه من الروم رضاءً يحملهم على أنْ يصعدوا به إلى العرش، فصار له مطمعٌ في رضا العرب؛ فأوَى إلى سليمان بن عبد الملك وأخيه مسلمة يؤامِرهُما على تحطيم قوات الدفاع الرومية لتخلُص البلاد للعرب، وتخلُصُ له رياسةُ الروم، فاستعانه سليمان ومسلمةُ على شرطِهِ، ووثق به مسلمة فأسلم إليه بعضَ الأمر!

وبلغ الجهد بأهل القسطنطينية ما بلغ، فاستعانوا البلغار والروس وأهل رُومية، ولكن هؤلاء كانوا في شُغلٍ بأنفسهم عن معونة غيرهم؛ وكان مسلمة قد خلَّف على جيش القسطنطينية بعض قادته، ودار دَورَةً على رأس بعض فِرق الجيش إلى ملك البلغار فحطَّمَ مقاومته وبدَّدَ شمله، ثم آب …

وأخذ الوهن يدبُّ في قوى الروم؛ فلم يجدوا بُدًّا من النزول على شرط العرب، فبعثوا إلى مسلمة في وقف القتال، وفكِّ الحصار على أنْ يؤَدُّوا إليه الجِزية؛ ولكن مسلمة أبى، فبعثوا إليه ثانيةً يطلبون أنْ يوفِد إليهم إليون الروميَّ ليفاوضوه في شروط التسليم؛ فأجابهم إلى ما طلبوا …

---

[٣] من عامة الناس.